(الاستشراق في الجزائر بين الأطروحات والوسائل)

-دراسة نقدية لبعض الأعمال الاستشراقية الفرنسية-

د/ جغلولي يوسف، جامعة المسيلة

د/ تالي جمال، جامعة جيجل

ملخص:

لقد ارتبط الاستشراق وخاصة الأعمال الفرنسية منه في الجزائر بدعم الجهود الاستعمارية، حيث تضمّنت الحملة الفرنسية على الجزائر عددا من المترجمين والكتاب والفنانين المهتمين بحياة الشرق، كما مثّل انعقاد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر عام 1905 الانطلاقة الحقيقية للاستشراق في الجزائر.

وعملت الإدارة الفرنسية بخبرائها وفنانيها ومترجميها إلى معرفة الحياة العربية الإسلامية بمختلف نواحيها في المجتمع الجزائري، وقام المستشرقون بأعمال كثيرة في المجال الديني واللغوي والآثار والعادات والتاريخ، وترجمة النصوص الدينية، ودراسة العربية والبربرية بمختلف لهجاتها، وتاريخ الجزائر والمغرب العربي عموما، والفلكلور، واهتموا بالإسلام كدين وعقيدة وكتصوف وطقوس ومرابطين، كما كانت اهتماماتهم في الغالب موجّهة حسب توجهات الإدارة الاستعمارية وحاجة الدولة الفرنسية.

ويمكن القول أن الاستشراق في الجزائر أثناء بداياته كان يهدف إلى التعرف على الحياة العامة في المجتمع الجزائري العربي المسلم، حيث كان استكشافيا، لكن سرعان ما أصبح الاستشراق أكثر تنظيما وتخطيطا وأنتج أعمال ضخمة في كل الموضوعات والمجالات تقريبا.

ونحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نتبيّن العلاقة بين الاستعمار الفرنسي وحركة الاستشراق في الجزائر، والأطروحات التي حاول أن يروّج لها المستشرقون في الجزائر، والوسائل التي اعتمدوها في ذلك.

كلمات مفتاحية: الاستشراق، الأطروحات ، الوسائل، الجزائر.

Abstract:

The orientalism was associated especially The French one in Algeria with the support of the colonial efforts against Algeria, including a number of translators, writers and artists interested in the life of the East. The 14th Orientalists Conference in Algeria in 1905 also marked the true beginning of Orientalism in Algeria.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

The French administration worked with its experts, artists and translators, to learn about the Arab-Islamic life in all its aspects in the Algerian society. Orientalists performed many works in the religious, linguistic, archaeology, customs and history fields, the translation of religious texts, the study of Arabic and Berber languages with their various dialects, the history of Algeria and the Arab Maghreb in general and the folklore. They were interested in Islam as a religion, doctrine, Sufism and rituals, and Almoravids, their interests were often directed according to the direction of the colonial administration and the need of the French state.

It can be said that Orientalism in Algeria in its early days aimed to identify public life in the Algerian Arab Muslim society, where it was exploratory, but quickly it became more organized, planned and produced large works in almost all subjects and fields.

In this paper, we attempt to distinguish the relationship between French colonialism and the Orientalism movement in Algeria, and the thesis that the orientalists in Algeria tried to promote, and the means adopted by them.

Keywords: orientalism, Literature, Method, Algeria.

أولا.مدرسة الجزائر أو بداية الاستشراق في الجزائر:

يعد الاستشراق الفرنسي في الجزائر أهم مظاهر الغزو الثقافي والذي شكل جزءا مهما من الاستعمار بمختلف أشكاله، نظرا للاهتمام الفرنسي بالمجتمع الجزائري وخصائصه ومكونات الهوية لديه والتي شكّلت مبعث الثورات والمقاومات الشعبية، وتبلور هذا الاهتمام من طرف الإدارة الاستعمارية في الدراسات العربية والإسلامية مع أعمال المستشرقين.

وكانت مدرسة الجزائر محطة بارزة في مسيرة الاستشراق بالجزائر، وعبارة (مدرسة الجزائر) حسب أبو القاسم سعد الله أطلقت عند البعض على تأثير الجزائر في الأدب الفرنسي وتلوينه بلون بيئتها ونكهتها، ولكن هنا تستعمل العبارة للدلالة على انطلاق الاستشراق الفرنسي والدراسات العلمية خاصة بعد عام 1879 أين تم إنشاء مدرسة الآداب العليا والتي أصبحت كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1909.[1]

فهي مدرسة فكرية أثرت في الفن والأدب واللغة والتاريخ والعلاقات بين الجزائريين والفرنسيين، وفوق ذلك كله أطلقت الاستشراق الفرنسي من عقاله، فانطلق يدعم الجهود الاستعمارية في الجزائر وفي باقي دول المغرب العربي.

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بالجزائر قبل الحملة الفرنسية سواء من الفرنسيين أو الأمريكيين أو باقي الدول الأوروبية، غير أن تأزم العلاقة بين الجزائر وفرنسا عام 1827 وتحضيرها لحملة على الداي حسين، جعل المستشرقين الفرنسيين يركزون اهتمامهم ويترجمون بعض الأعمال عن الجزائر لمستشرقين أمريكيين وأنجليز.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتضمنت الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830 عددا من المترجمين والكتاب والفنانين ورجال الدين والمهتمين بحياة الشرق عموما، ولعل نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر جعلت كلا منهم يتفرغ لعمله حسب تخصصه. خاصة في ظل حاجة الإدارة الاستعمارية لمترجمين يعملون معها، لتسهيل التواصل مع السكان وفهم المجتمع الجزائري.

وشكلت مدرسة اللغات الشرقية في فرنسا المنبع الذي يمد الإدارة الاستعمارية بالمترجمين والمختصين في مختلف المجالات خاصة مع ظهور تلك الحركة التي اهتمت بجمع المخطوطات والكتب النادرة التي تخص العهد العثماني في الجزائر وما قبله، ورافقتها حفريات للآثار الرومانية وغيرها.

ثانيا.الاستشراق ومراحله:

إن التأريخ للاستشراق في الجزائر لا يمكن حصره في الفترة التي تلت الاستعمار الفرنسي، بل يمكن القول أن هناك اهتماما كبيرا للمستشرقين بالجزائر قبل ذاك الألمان منهم والانجليز والبرتغاليين والأسبان، وإذا ما عدنا إلى عام 1827 لوجدنا أن الفرنسيين قاموا بترجمة أعمال المستشرقين الأوروبيين والأمريكيين عن الجزائر إلى اللغة الفرنسية، وهنا لعبت مدرسة اللغات الشرقية دورا مهما.

واعتبر سيلفستر دي ساسي Silvestre di Saci زعيم الاستشراق الفرنسي في تلك الفترة، وقد تخرج على يديه جيل من المستشرقين في فرنسا وأوروبا، وبدخول فرنسا أرض الجزائر ومحاولة تأسيسها لإدارة مدنية تتحكم في الجزائريين وظّفت المترجمين من يهود الجزائر، والذين كانت تلك وظيفتهم حتى قبل دخول الفرنسيين وأيضا من الأوروبيين الذين تخرجوا من مدرسة اللغات الشرقية وتوسع توظيفهم بتوسع الإدارة الاستعمارية في الجزائر، كما أنهم قاموا بجمع المخطوطات والاستيلاء على المكتبات.[2]

لذلك يمكن القول أن الانطلاقة الحقيقية للاستشراق الفرنسي بدأت بحركة الاستعمار وتوسعه في الجزائر، ولعل ما يميز الاستشراق الفرنسي في الجزائر استعمال اللهجة الجزائرية وليس العربية الفصحى لاعتبارات استعمارية توسعية بحتة، وقد مر الاستشراق في الجزائر بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: من بداية الاحتلال 1830 إلى إنشاء المدارس العليا سنة 1879:

تميز هذه المرحلة بجهاز ترجمة قوي على يد العسكريين الفرنسيين في معظم الأحيان، وهناك مترجمون وإداريون وآخرون قضائيون، وقد نتج عن أعمال هؤلاء الكثير من النصوص والعرائض والوثائق التاريخية، واشتغل المستشرقون في اللجان العلمية والجمعيات المتخصصة، ونشروا أبحاثهم للتعريف بالشعب الجزائري المحتل في مختلف عصوره ومظاهره.

وأثناء هذه المرحلة زار الجزائر عدد من الأدباء والمفكرين والفنانين الفرنسيين المهتمين بحياة الشرق، وكانت زياراتهم بدعم وتشجيع من الحكومة الفرنسية نفسها، حيث ارتبط الاستشراق منذ البداية بإدارة الاحتلال الفرنسي وتوجهاته الاستعمارية.[3]

المرحلة الثانية: من 1879 إلى 1930:

في هذه المرحلة أدخلت العديد من الإصلاحات في فرنسا على التعليم العالي، وأعيد تنظيم جامعة السوربون، كما ظهرت مدرسة **دوركايم** Durkheim في علم الاجتماع والاستشراق، وأنشئ كرسي لتعليم اللغة العامية الجزائرية في باريس وكرسي لتعليم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللغة الامازيغية، وظهرت كلية الآداب عند تأسيس جامعة الجزائر في 1909، كما تم انعقاد المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين تحت إشراف **رينيه باصيه** Renie Bassi عميد كلية الآداب وعميد المستشرقين في الجزائر حينذاك.

وفي 1906 ظهرت مجلة العالم الإسلامي برئاسة ألفريد لوشاتليه Alfred Le Châtelet الذي سبق له العمل في الجزائر كرئيس للمكتب العربي العسكري في الجنوب، كما انتعشت حركة الاستشراق الفرنسي في جميع المستعمرات وغذته تلك الكراسي التي فتحت بمختلف اللغات واللهجات في كلية الآداب بجامعة الجزائر.

المرحلة الثالثة: من 1930 إلى الاستقلال 1962:

ابتدأت هذه المرحلة بالاحتفالات الضخمة التي أقامها الاستعمار الفرنسي بمناسبة مرور مائة سنة على دخوله الجزائر، وهي مرحلة امتازت بالتوسع في إنشاء المعاهد المتخصصة في الاستشراق كمعهد الدراسات الشرقية، ومعهد الدراسات الصحراوية، ومعهد الدراسات العربية، وتحويل المدارس الشرعية الثلاث إلى ثانويات مزدوجة، وبقاء الصلة الوثيقة بين الاستشراق والسلطة الاستعمارية خاصة في ظل ظهور نخب جديدة ظهرت في القيادات السياسية في المستعمرات.

ويبدوا أن الاستشراق الفرنسي في الجزائر قد عرف هزة عنيفة مع الحرب العالمية الثانية، وثورة الجزائر، والحرب الباردة، ومن أبرز المستشرقين في هذه المرحلة هنري بيريز، وليفي بروفنصال وكانتينو، وروبير برونشفيك.[4]

ثالثا.أطروحات المستشرقين في الجزائر:

الفرنسيون لم يكتشفوا الجزائر باحتلالها سنة 1830، فقد كتبوا عنها في عدة مناسبات وكانت بينها وبينهم معاهدات، ومبادلات تجارية، وتبادل للأسرى، وجوسسة وتقارير وقناصل، ورحلات..، ولم يكن خفيا أطماع الفرنسيين أو غيرهم من الأوربيين في الجزائر، فحاولوا التعرف عليها من خلال الكتابة عن السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم، الدين والثقافة، والتاريخ، والتربية والتعليم والمؤسسات التي تحتضنها، وقد راجت في بدايات الاستعمار الفرنسي للجزائر كتب تشرح للسياح كيفية الحياة في الجزائر ونمط عيش سكانها تشجيعا لسياسات الاستيطان الأوروبي فيها.

لكن ارتباط هؤلاء المثقفين والمستشرقين بالإدارة الاستعمارية كموظفين فيها أو كحاملين لتلك الإيديولوجية التوسعية، استطاعوا أن يروجوا لأطروحات من شأنها التمكين للاستعمار الفرنسي في الجزائر، أطروحات استهدفت المقوّمات الأساسية التي تكون المجتمع الجزائري، كالدين واللغة، والتاريخ، والموقف من التحضر والتمدن، وقضايا المرأة.

لقد جاء الفرنسيون إلى الجزائر بمجموعة من العقد التي كانت متراكمة لدى الأوربيين من العصور الوسطى حول العرب والمسلمين والشرق والشرقيين بصفة عامة، وكانت عقائد الحروب الصليبية ما تزال حية في أذهانهم وكتبهم، من التواجد الإسلامي في الأندلس إلى سطوة العثمانيين على أوروبا الشرقية والجزائر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد كان احتلال الفرنسيين للجزائر أكثر من انتصار بعد فشل الحملة على مصر وتحجيم الخريطة الفرنسية بعد مؤتمر وترلو Waterlo ، فتصرفات الفرنسيين في الجزائر مدنيين وعسكريين تدل على شذوذ غريب، وعلى رغبة عميقة في الانتقام من الماضي كله، لما حمله من انتصارات للعرب والمسلمين في بلادهم وانكسارات لحروبهم الصليبية.

فرنسا كانت تزعم أنها حاملة لرسالة حضارية جاءت لتنشرها في المجتمع الجزائري الذي تخلف عن الركب بسبب التواجد العثماني، وأعلنت الجزائر مملكة عربية تابعة للمملكة الفرنسية وحتى بعد سقوط النظام الملكي في فرنسا بقي ساستها يرددون مقولة الجزائر فرنسية، فما هي يا ترى هذه الأطروحات التي صاغها المستشرقون؟ وهل ساعدتهم في رسم سياسات تمكّن لهم من تحقيق الغايات الاستعمارية؟

1.اللغة:

هدفت فرنسا من خلال أطروحاتها الاستعمارية إلى إلحاق المجتمع الجزائري بالمجتمع الفرنسي وجعله امتداد له، وعلمت من خلال مستشرقيها أنه لن يتأتى لها هذا إلا بإحلال الفرنسية محل العربية والمسيحية محل الإسلام، كي يتناسق كلا المجتمعين الجزائري والفرنسي في المقوّمات والخصائص.

فعملت منذ الوهلة الأولى على محاربة اللغة العربية تارة من خلال التضييق على التعليم القرآني، ومنع الأهالي من تدريس أبنائهم وهدم المساجد والزوايا وتحويلها إلى كنائس ومستودعات وثكنات، وتارة أخرى من خلال فتح المدارس الفرنسية أمام الجزائريين من أجل تعليمهم اللغة الفرنسية، وجعلها لغة الإدارة والتواصل في المجتمع الجزائري، وكانت الوظائف المتاحة أمام الجزائريين يشغلها من يتقنون التواصل بها.

لقد ادعى المستشرقون الفرنسيون ومن وراءهم الإدارة الاستعمارية أن اللغة العربية هي لغة تخلف ولا تصلح لان تكون لغة الحضارة والصناعة كما الحال مع الفرنسية، ولكي تؤدي فرنسا رسالتها الحضارية لا بد من جعل الفرنسية لغة الأهالي. ويقول أحد المستشرقين"..لقد كان على السادة أن يستعملوا اللغة العربية في الإدارة لفهم السكان المحليين، ولا يمكن مطالبة المنهزمين (الجزائريين) بتعلم لغة الغزاة فورا".[5] لقد كانت اللغة العربية ونشرها بين الضباط والعسكريين الفرنسيين وسيلة قوية للتقارب بين الأعراق التي يبعدها عن بعضها البعض الأصل والدين والعادات.

كما نجد أن الاستعمار الفرنسي حاول استمالة البربر من سكان الجزائر، وراح يروج لأطروحات تلغي تاريخ البربر من المشرق في نشر الحضارة الإسلامية في الأندلس ووسط فرنسا نفسها، فتارة تجعلهم الدراسات التاريخية وعلماء الآثار مسيحيي الديانة والإسلام غريب عنهم، وأنهم في عاداتهم وتقاليدهم اقرب إلى المسيحية منه إلى الإسلام بحكم اتصالهم بالحضارة الرومانية، وتارة أخرى تنسب أصولهم إلى الساميين، وكلها محاولات استعمارية لصياغة أطروحات تفرّق بين مكونات الشعب الجزائري، لتمكّن لسياسة الاستعمار الفرنسي.

""....البربر كانوا ومازالوا مسيحين، وإن دعاة المسيحية الذين بثهم فرنسا بين القبائل البربرية، إنّما هم وعاظ يذكرون إخوانهم البربر بدينهم القديم، لا دعاة لدين جديد أو معتقدات غربية.."[6]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الناحية الاجتماعية حاول المبشرون العزف على وتر العرف القبلي، حيث اعتبروا أن أعراف سكان منطقة القبائل مستوحاة من القانون المسيحي، وبعيدة عن الإسلام، وقوانينهم الاجتماعية هي اقرب للقوانين السائدة في فرنسا، لكي يقبلوا بالقوانين الفرنسية على حساب الشريعة الإسلامية، ويقول أحد المستشرقين".. سكان فرنسا الإفريقية ـ الجزائر ـ على أنواع مختلفة، فمنهم البربر وهم اقرب الناس إلى فرنسا، ومنهم العرب وهم اقل استعدادا للتقدم والتطور."[7]

2.الدين:

تناول المستشرقون من علماء أوروبا الإسلام والمسلمين بالدراسة والتحليل من نواحي مختلفة، وارتبط هدفهم في ذلك أول الأمر بالدافع الديني من طرف الكنيسة ورجالها قصد التثقيف، وتصوير المسلمين والإسلام على أنهم أعداء للمسحية، غير أن هذا الدافع سرعان ما تحول إلى سياسي استعماري تعكسه تلك الحروب الصليبية ضد الإسلام وبلاد المسلمين.

والاستشراق نفسه لم يزدهر إلا بتوسع الحركات الاستعمارية في أوروبا وتناميها،ولعل ما يلاحظ من اهتمام المستشرقين بالجانب الديني هو اهتمامهم بالتصوف في الإسلام وتطوره ومؤسساته.

وهو اهتمام ليس بريئا بالمرة، لأنهم بعد أن بسطوا سيطرتهم العسكرية على الدول الإسلامية أخذوا يوجهون بعض الزوايا والطرق الصوفية ويتحكمون فيها من أجل التمكين للسياسات الاستعمارية، مثلما حدث مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

ونجد أن فرنسا قد تعهدت عند إمضاء معاهدة التسليم في 05 جويلية 1830 أن تحترم الدين الإسلامي، وتعمل على صيانة حرية ممارسة الشعائر الدينية للجزائريين، لكن سرعان ما ضربت هذه المعاهدة عرض الحائط وتنكّر لها المسئولون الفرنسيون، فهم من جهة حاربوا الدين وهدموا المؤسسات الدينية وصادروا أموال الوقف وجففوا منابع تمويلها، ومن جهة أخرى اضعفوا اللغة العربية والتعليم الديني وضيّقوا عليه واستمالوا بعض الزوايا وشجّعوا على الدجل فيها والسحر والشعوذة، وأصبح الدين ما هو إلا الاعتقاد في بركة الأولياء.

3.الحضارة:

يقول دي طوكفيل De Tocqueville أن المجتمع الجزائري كان نصف متحضر، وأن له حضارة متخلفة وغير متقنة، والدليل على ذلك أنه كان يتمتع بمؤسسات كثيرة خيرية وتعليمية، كان هدفها سد حاجات اجتماعية وتوفير خدمة التعليم، غير أنها كانت خدمات رديئة وجعلت من المجتمع الجزائري مجتمعا متخلفا كونها نشأت تحت الإدارة العثمانية المتخلفة بدورها، وأن الإدارة الفرنسية أكثر تمدنا وتستطيع بعث روح حضارتها في المجتمع الجزائري.[8]

وذهب **غوتيه** Goutie إلى أنه لا يمكن لنا أن نتصور استقلال الجزائر عن فرنسا، لأن تاريخ الجزائر منذ ألفي سنة يشهد على تبعيتها لدولة خارجية، ومن جهة أخرى اعتماد الجزائر على الزراعة يجعلها في حاجة للأسواق الفرنسية، كما أن قرب الجزائر من مرسيليا دليل على هذا الرابط القوي بين الطرفين، فالاندماج والتكامل الاقتصادي قضية حتمية في نظره.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد تحدث جاك بيرك J.Burque قائلا: إن عهد الاحتلال الفرنسي بالنسبة للجزائر هو عهد التحرر الحضاري من وصاية الشرق ودخولها بفضل فرنسا وصرخة فارسها المجهول تحت وصاية الغرب وبالخصوص تحت مظلة سكان بلاد الغال. حيث تفقد الجزائر هويتها وتندمج اندماجا كليا في شعب آخر فرض نفسه عليها بمختلف الوسائل.[9]

والذي دعانا لتعلم العربية ليس فقط لحكم الجزائر، ولكن لإدخالهم بالتدرج إلى عالم أفكارنا وحضارتنا وبذلك يتعرف الفرنسيون على حاجات الجزائريين ورغباتهم وأحلامهم لكي:" نجعلهم يتذوقون تحسيناتنا ويتعودون على اعتبارنا كحماة لهم وممدّنين لبلادهم، وليس كغزاة تساندهم الأسلحة."[10]

ويضيف المستشرق الفرنسي ماشويل L. Machuel أستاذ كرسي اللغة العربية في جامعة الجزائر سنة 1875 :"أن دراسة أدب الجزائر سيؤدي إلى معرفة عبقريتهم وأصالة فكرهم وشعرهم المؤثر، ومعرفة كتبهم في العلوم والتاريخ والفقه والدين، ومن ثمة معرفة أصولهم وأفكارهم وتقاليدهم.[11]

إذن هي مقولات تعكس نظرة فرنسا الاستعمارية للمجتمع الجزائري من خلال مستشرقيها، مدعية أن الماضي العربي الإسلامي كان سببا في تخلف الجزائريين، مقسّمة مكونات المجتمع الجزائري بين عرب متخلفين غير قابلين للتحضر وبربر يمكن لهم أن يكونوا متمدنين إذا ما اخذوا بأسباب الحضارة الفرنسية.

4.المرأة:

ركز المستشرقون الفرنسيون الاهتمام بالمرأة الجزائرية المسلمة وحاولوا إبعادها عن الإسلام بداعي الحضارة، ونظر إليها بعض المستشرقين إلى أنها محرومة نتيجة تطبيق العرف عليها، ورآها بعضهم أنها قابلة للاندماج الذي ينشده الفرنسيون، واشتهرت ماري بوجيجا M.Bogiga في كتاباتها بدعوة المرأة الجزائرية بعبارة أخواتي المسلمات، إلى التخلص من التقاليد البائدة، تلك التقاليد التي تركتها في الحضيض.[12]

ومعظم كتبات المستشرقين تطعن في تعاليم الإسلام من خلال تصوير وضع المرأة الجزائرية، على أنها قدرية غارقة في الخرافات، ومستسلمة راضية بحكم القضاء عليها، وهي ضحية التخلف والأمية التي يعيشها المجتمع الجزائري، فهي لعبة الرجل التي كان يشتريها بنقوده كما يشتري البهائم والبضائع، فهي ضحية الإسلام القاسي الذي جعل الرجل قوّاما على المرأة وأباح تعدد الزوجات وجعل الطلاق بيد الرجل وحده، وفرض قيودا غطائها الحجاب والعفاف.

فالمرأة الجزائرية في كتاباتهم نمط واحد في المدينة والريف، هي آلة نسل وخادمة بيت وجالبة حطب وماء، محرومة من كل الملذات، فلا أفراح ولا ملاهي ولا مراقص، إن شباب المرأة يذوي بسرعة ويداهمها الهرم وهي في الأربعين فترهل وتموت قبل الأوان.[13]

وانطلاقا من هذه الصورة ظهر تيار فكري وأدبي يدعوا لمحاولة إنقاذ المرأة الجزائرية، والحقيقية أن تغيير أي مجتمع إنما يمّر عبر تغير المرأة فيه، ولم يقف الوضع عند حد الكتابات فقط بل تعداه إلى إرسال النساء الأوربيات التي حولت دروس الطرز والخياطة إلى دروس للتنصير والترقية الحضارية والإدماج الاجتماعي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5.قانون الألقاب:

كانت الألقاب في المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي ثلاثية التركيب (الابن الأب والجد) وفي بعض الأحيان خماسية تضم المهنة والمنطقة السكنية، كما أن اغلبها حمل دلالات دينية، تشير إلى الانتماء العربي الإسلامي للمجتمع الجزائري، أو ذات دلالات تاريخية تشير إلى الفترات التاريخية التي مر بها المجتمع الجزائري والى الشعوب التي تواصل معها أو كان معها في عداء.

وبصدور قانون الحالة المدنية للأهالي الجزائريين في 1882 والذي يقضي باستبدال الألقاب الثلاثية للجزائريين بألقاب مشينة ومذلة، كان الهدف منها الاستيلاء على ملكية الأراضي، وتفكيك نظام القبيلة في المجتمع الجزائري، وقطع الصلة بين الشعب الجزائري وماضيه الحضاري العربي الإسلامي، بإبرازه كفرد معزول عن الجماعة، وتغيير أساس نظام الملكية، وتعويضه بالقانون الفرنسي، والذي يخاطب الشخص بلقبه وليس باسمه.

وهذا القانون لم يأتي من فراغ وليس صنيع السياسيين بقدرما هو وليد الدراسات التي قام بها المستشرقون والباحثون الفرنسيون في مختلف المجالات على المجتمع الجزائري آنذاك، خاصة بعد سنوات المقاومات الشعبية التي لم تنقطع طيلة أربعة عقود في كافة ربوع الوطن.

فتوصل المستشرقون أن قوة المجتمع الجزائري في تمسكه بدينه ولغته وانتماءاته القبلية وأن الأرض هي ما تؤكد أواصر الانتماء للفرد، وعليه جاء هذا القانون والذي كان هدفه الرئيسي طمس هوية الشخصية الوطنية، ومحاولة تحقير وإذلال الجزائريين بألقاب مذلة ومهينة ومشينة تحمل أسماء للحيوانات وصفات لها، وأخرى للمهن وأطراف الإنسان وأعضاءه، وأسماء للأماكن والأشجار وغيرها.

فتغيير الألقاب كان جزءا من مخطط استعماري استهدف النيل من الهوية الوطنية وتغيير الطابع الاجتماعي للمجتمع الجزائري باعتباره مجتمعا قبليا، مرتبط بالعائلة والأرض والماضي الحضاري العربي الإسلامي، لقد استهدف تفكيك العائلة ومن ثم القبيلة ومن ثم نزع ملكية الأراضي بكل سهولة.

خامسا.وسائل المستشرقين في الجزائر:

1.اللجان العلمية:

بدأ عمل اللجان العلمية للمستشرقين في الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر والى غاية استقلالها، فقد عملت في كل مجالات البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، في شكل جماعي مما ساعد على إنتاج وتأليف وإخراج موسوعات تاريخية ، وتشمل هذه الأعمال الجماعية مشروع (اكتشاف الجزائر العلمي) ومشروع الاحتفال المئوي بالاحتلال الفرنسي للجزائر، وبحوث جامعة الجزائر بمختلف كلياتها ومعاهدها، ولجنة دراسة الأوضاع الإسلامية، ولجنة ترجمة الكتب من العربية إلى الفرنسية.

مجلة حقائق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2.الجمعيات المتخصصة:

رغم انتمائها للإدارة الفرنسية وعملها تحت إشرافها إلا أن الجمعيات المتخصصة في البحث العلمي وحقوله قدمت إضافة كبيرة في الكشف عن تاريخ المجتمع الجزائري وخصائصه، غير أنها كانت ضيقة الأفق جانبتها الموضوعية في كثير من الأحيان كونها تعكس وجهة نظر عنصرية ، إذ كانت تكرس التفوق الحضاري الفرنسي وتقوم على النظريات الانثروبولوجية والدراسات العرقية.

هي جمعيات درست المجتمع الجزائري في تنوعه الثقافي، البربر من منطقة القبائل والشاوية إلى الطوارق في الصحراء وبني ميزاب وعادات وتقاليد كل منطقة، والنسيج الاجتماعي للمجتمع الجزائري، والدين والتصوف ومكانة الشيوخ والأولياء الصالحين، والأدب الشعبي والشعر الملحون، ونمط العيش واللباس والأكل والأفراح وإحياء المناسبات الدينية.

كما ظهرت جمعيات متخصصة في دراسة الآثار وركزت بالخصوص على إبراز الامتداد الحضاري للجزائر إلى الحضارة الرومانية، جميلة وتيمقاد وشرشال سيرتا والكثير من المواقع التاريخية، التي تكشف عن التواجد الروماني، وحاولت التقريب بين شعوب المتوسط، لاختزال الماضي العربي الإسلامي، والتأكيد على أن الأمازيغ هم مسيحيون قبل الإسلام وأنهم قابلون للتحضر ليسوا كالعرب.

3.المعاهد الجامعية:

لقد ساهمت جامعة الجزائر في تلك الأعمال العلمية الجماعية التي قامت بها البعثات العلمية أو اللجان أو الجمعيات المتخصصة، حيث قام أساتذتها ببحوث تخدم الإدارة الاستعمارية في الجزائر والمغرب العربي وإفريقيا، بل وفي المشرق العربي والإسلامي أيضا.

كانت جامعة الجزائر والتي ترجع نواة تأسيسها إلى المدارس العليا سنة 1880، قد ظهرت إلى الوجود سنة 1909، وتطورت حتى أصبح الفرنسيون يسمونها السوربون الإفريقية، وكانوا يعتبرونها الجامعة الفرنسية الثالثة لارتفاع مستواها التعليمي، لأن فيها من الأساتذة من هم كبار المستشرقين في مختلف المجالات من أمثال ماسكري وباصيه وموران وفانيان[14]

وظهر معهد الدراسات الصحراوية عندما اهتمت الإدارة الاستعمارية بدراسة الصحراء وقد ضم أطباء ومستشرقين وضباط ومستكشفين وعلماء في الجيولوجيا كل في مجال تخصصه، ومعهد الدراسات الشرقية الذي يعنى بالعالم العربي والإسلامي، وهناك العديد من المعاهد التي كانت تحت إشراف الحكومة الفرنسية وتسعى لخدمة الأغراض الاستعمارية.

4.البعثات العلمية ومشاركة المثقفين الجزائريين فيها:

لقد انطلقت الكثير من البعثات العلمية في الجزائر باتجاه الصحراء وإفريقيا، قادها فرنسيون مدنيين وعسكريين مسلحين بحب العلم والمعرفة وروح المغامرة والتطلع إلى الاكتشاف، وساعدهم في ذلك جزائريون من مثقفين وشيوخ زوايا وطرق صوفية، حيث كانت الطريقة القادرية مثلا تنافس الطريقة التيجانية في التقرب إلى فرنسا بمساعدة البعثات العلمية وتسهيل المهام لها. كما كانت هذه البعثات تقبل في عضويتها جزائريين من مزدوجي اللغة والثقافة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولعل ابرز ما قدمته هذه البعثات في المجال العلمي تلك الدراسات التي تناولت الطرق الصوفية والقبائل واللهجات الشعبية والأمازيغية والتربية والعادات والتقاليد، للاستفادة منها في التقدم نحو إفريقيا والسيطرة على الصحراء وثرواتها.

5.الكنيسة والتنصير:

اعتبر الفرنسيون سقوط الجزائر تحت الاحتلال سقوطا لأبرز قلاع الإسلام، كما أن الحملة الفرنسية على الجزائر كانت امتدادا للحروب الصليبية، وتشير التقارير إلى انه من بين العسكريين الفرنسيين كان هناك رجال دين وقساوسة جاؤوا لمباركة الحملة واعتبروا القتلى الفرنسيين شهداء للمسيحية.

وعندما تم توقيع معاهدة التسليم بين الداي حسين و**دي بورمون** Di Bourmo القائد العسكري للحملة مخاطبا القساوسة:" إنّكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع...."[15]

وبذلك بدأت الانطلاقة الحقيقية للسياسة الاستعمارية التبشيرية التي قادتها الكنيسة في الجزائر اتجاه المسلمين ودينهم، وكان المستشرقون هم الموجه للكنيسة يرسمون لهم الطرق لتحقيق الأهداف، فبعد مصادرة الأوقاف وتجفيف منابع التمويل للمؤسسات الدينية وتهديم المساجد وتحويلها إلى مستودعات وثكنات وكنائس، كتب أحد القادة العسكريين وهو فرنسيس موران Morelle في كتابه (الجزائر أو افريقيا الفرنسية) قائلا:" منذ الاحتلال الفرنسي لاحظ الفرنسيون في المدن، ولا سيما العاصمة أن عدد المساجد فوق الحاجة، ولذلك حوّلوا عددا منها الى مستشفيات ومستودعات، وحتى كنائس كاثوليكية."[16]

وكانت هناك سياسة أخرى ترّغب الجزائريين في المسيحية كتقديم المساعدات والإعانات والطب مقابل الإيمان بالمسيح، وكتبت ايفون توران Ivon Turan كتابا في هذا الصدد عنونته بالمواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة وبيّنت كيف كان رجال الدين والآباء البيض يقدمون التعليم والطب والعلاج للشعب الجزائري. [17]

ولعل ما قام به الكاردينال **لافيجري** كان غاية في الذكاء والدهاء حيث استغل أوضاع المجتمع الجزائري نهاية القرن التاسع عشر وما ساد فيه من مجاعة وأمراض وأوبئة فتكت به، فصار يقدم المساعدات والطب ويعالج الناس باسم المسيح، كما حاول التأسيس لنواة مجتمع مسيحي جزائري مكون من فتيان وفتيات جزائريين توفيت أسرهم بسبب المجاعة، فجمعه بمخيمات بمدينة الشلف وقام بتوفير كل ما يلزمهم من رعاية وتعليمهم الديانة المسيحية.

خاتمة:

إن اهتمام المستشرقين الفرنسيين بمكونات الهوية في المجتمع الجزائري بالدراسة والتحليل كان لخدمة الغايات الاستعمارية، وهو اهتمام يكاد فريدا من نوعه، كونه حاول أن يحّل مجتمعا محل آخر وهوية محل أخرى، إنها محاولة إلغاء للعربية مقابل الفرنسية وإلغاء للإسلام في مقابل المسيحية، وللتاريخ الحضاري للمجتمع الجزائري.

وكان لعزم الاستعمار الفرنسي على البقاء في الجزائر وجعلها امتداد جغرافيا وجزءا لا يتجزأ منها، ترتب عليه الاهتمام بالمجتمع الجزائري بكل مكوناته الثقافية وامتداداته التاريخية والحضارية دراسة وتأليفا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الصعب أن نعدد أعمال المستشرقين في الجزائر ومجالات اهتماماتهم، فقد درسوا المجتمع الجزائري في كل المجالات الممكنة والتخصصات المتاحة، فقد اهتموا بالمعاجم واللسانيات والخطوط والنقوش، والتاريخ الديني وتحقيق النصوص والترجمة في ميادين الأدب والتاريخ والعلوم والجغرافيا والفقه، بالإضافة إلى الأعمال الانثروبولوجية ودراسة الفلكلور والأدب الشعبي، وما قاموا به من دراسات سوسيولوجية.

وأصبحت الجزائر منذ بدء الاستعمار منطلق الاستشراق الفرنسي، فقد وقعت وثائقها ومخطوطاتها وآثارها بين أيدي المستشرقين، فتصرفوا فيها تصرف المالك في ملكه، واستولوا عليها إلى يومنا هذا. كما أصبحت الجزائر محور الأعمال الاستشراقية الفرنسية في إفريقيا ومنطلقها بما يسمى بالمهمات العلمية في كل من تونس والمغرب والسنغال.

خرج الاستعمار الفرنسي من الجزائر وبقيت آثاره التي لا تمّحي، في الثقافة العربية الإسلامية واللهجة المستعملة في الجزائر،وإن زالت صورة الاستشراق التقليدية إلا أنه جدد أساليبه وحافظ على أطروحاته، وظل الفرنسيون يعتبرون الجزائر امتدادا تاريخيا لهم.

الإحالات:

1- أبو القاسم عد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس،عالم المعرفة، الجزائر،2011،ص7.

2-المرجع السابق،ص 11.

3- المرجع السابق، ص 13

4- المرجع السابق ص14.

5-أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزائر،1996، ص24.

6- حلوش عبد القادر: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر،ط1،دار الامة، الجزائر،1999،ص 211.

7-بقطاش خديجة: أوقاف مدينة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي 1830، العدد 62، الجزائر 1981، ص 136

8-أبوالقاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس،ص284.

9-نفس المرجع ص 294.

10-أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص25

11- المرجع نفسه.

12-ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج 6، ص 355.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

13- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3 ص337

14-.أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس، ص 102

15-عبد الجليل التميمي:التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسئولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية المغربية، العدد الأول،تونس،1974، ص14.

16- المرجع نفسه.

17-ايفون توران:المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدرسة الممارسات الطبية والدين، 1830.1880، الجزائر.

قائمة المراجع:

1. أبو القاسم عد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس،عالم المعرفة، مجموعة أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله، وزارة الثقافة،الجزائر،2011.
2. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،الجزء الرابع، الطبعة 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،لبنان،1996.
3. حلوش عبد القادر: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر،ط1،دار الامة، الجزائر،1999.
4. بقطاش خديجة: أوقاف مدينة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي 1830، العدد 62، الجزائر 1981.
5. عبد الجليل التميمي:التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسئولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية المغربية، العدد الأول،تونس،1974.
6. ايفون توران:المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدرسة الممارسات الطبية والدين، 1830.1880، الجزائر.

www.manaraa.com